آليات تحليل الخطاب في كتاب سيبويه

الأستاذ الدكتور : بشير ابرير
قسم الآداب و اللغة العربية
كلية الآداب و اللغات
جامعة باجي مختار-عنابة (الجزائر)

ملخص:

كتاب سيبويه ليس كتابا في النحو بالمعنى التقليدي؛ وإنما هو كتاب في تحليل الخطـــاب، ولـــسانيات النص درس فيه اللغة كوضـــع أو كنظام بنوي، ودرس فيه ظـــواهر الاستعمال التي تؤكدها الدراسات اللسانية المعاصرة في إطار الطابع التداولي العملي.

Résumé:

AL-KITAB de S HIBAWEAH est un ouvrage d'analyse de discours et linguistique textuelle, autant qu'il est un ouvrage de grammaire. Il a pour objet, dans sa nature pragmatique, la langue autant qu' un système structural et les phenomènes liés àl'emploi prouvés par les recherches linguistiques contemporaines

الخطاب حدث لغوي يرسله متكلم أو مرسل نحو مخاطب أو مرسل إليه قصد إفادته بمعلومات أو أخبار جديدة في مقام محدد وباستعمال وسيلة تبليغية محددة، والانطلاق من ظروف أو أحوال وأوضاع مشتركة بين المتخاطبين لا يعرفها غيرهما.

وهذا يعني أن الخطاب نشاط تواصلي يتأسس على اللغة المنطوقة أولا، ويرتبط بالتعبير عن كل نظم الإفادة في الممارسة الاجتماعية، فلكل معرفة خطابها المعبر عنها الشارح الواصف لمحتوياتها المحدد لأهدافها، فهو لسان حالها في منظومات المعارف التي تقتضيها مجالات الحياة وسياقاتها الاجتماعية المختلفة

والخطاب هو الكلام بالمفهوم السوسيري؛ أي الأداء اللساني المتحقق في خصوصية تأليف الجملة، كما يتداخل عند بعضهم بمفهوم النص، سواء على اعتبار أن النص ليس إلا كلاما مكتوبا، أو على اعتبار كلمة نص رديفا للخطاب في بعض اللغات التي لا تملك مقابلا لهذه اللغة.

والخطاب هو الملفوظ في مقامات تواصلية معينة، وبهذا يتحول تحليل الخطاب إلى امتداد لنحو ما بعد الجملة؛ أي البحث في قواعد وضوابط بناء المتتاليات من الجمل كما هو الحال عند هاريس، أو البحث في علاقاتها المنطقية الدلالية كما هو الحال عند المناطقة. وبما أن الملفوظ غايته التخاطب من خلال اللغة، فهو مقام ومعلم في المسار التوليدي للغة، يتطلب بحثا نظريا متعدد الاتجاهات لتحديد الكفاءات البانية له والمحددة لمساراته.

والخطاب كذلك هو المحتوى، وذلك على اعتبار الوحدات المتمفصلة

في الموضوع هي وحدات يتم تحديدها من خلال محتوياتها أو الدلالات

المصاحبة لها، وهذه المحتويات أو الدلالات المصاحبة مرتبطة بأشكال معرفية وثقافية وحضارية ضمنية وصريحة.

والخطاب أخيرا نسق فعل سيميائي يبنى على ثنائية اللسان/ الكلام عند دوسوسير، والكفاءة والإنجاز عند تشومسكي، النظم/ النظام عند يلمسلاف.

أي البحث في المسافة الفاصلة، بين القاعدة وطرائق تطبيقها، بين الكفاءة والأشكال الممكنة لإنجازها، وبين النظام وخصوصية تحسينه أو إعادة تنظيمه[1].

إن تحليل الخطاب تخصص ثري خصب اكتسب جدارته المعرفية وسيادته العلمية لكونه يوفر للباحث مداخل منهجية مختلفة لتحليل النصوص والخطابات المختلفة، بالنظر للمدارس اللسانية والنقدية المختلفة وخلفياتها النظرية ومرجعياتها الفكرية والمعرفية التي تؤطرها وتكيف خطابها ...

كما يعد تحليل الخطاب مولودا شرعيا للسانيات التطبيقية، فهو ميدان لاستثمار المعطيات المنهجية المختلفة التي وفرتها اللغة في دراسة النصوص والخطابات وتحليلها على المستوى البنوي والسيميائي والتداولي.... وقد أصبح علما قائما بذاته له خلفياته النظرية وأسسه المعرفية وموضوعه ومناهجه وإجراءاته التطبيقية ووسائل تحليله ونتائجه.

وإذا كان الخطاب مصطلحا أصيلا في التراث اللساني العربي يرتبط بظواهر المشافهة ويعبر عنها، فإن المعرفة اللسانية الغربية الحديثة لم تعرف

هذا المصطلح: الخطاب وتحليل الخطاب إلا مع العالم اللساني الأمريكي زليغ هارس 1952، وإذا كان وجود الخطاب مصطلحا صريحا في التراث فإن تحليل الخطاب موجود باعتباره ممارسة منذ عهد الخليل (ت175هـ) وسيبويه (ت180هـ) ووصولا إلى ابن خلـــــــدون (ت808 هـ).

من هنا تأتي هذه الدراسة لا لكي تطرح بديلا؛ وإنّما لكي تمارس قراءة وتنبّه على جهود مضنية بذلها العلماء العرب القدامى في مجال المعارف اللسانية بخاصة. ونحن نتناول آليات تحليل الخطاب عند "سيبويه"؛ أي كيف تعامل "سيبويه" مع النصوص المختلفة التي كان يوردها ويقوم بتحليلها، يمكن أن نسجّل بعض الملاحظات منها:

- يظهر النظر الابستيمولوجي أن الأساس المعرفي الذي قامت عليه المنظومة النحوية العربية أو النظر النحوي العربي، هو أساس عقدي. "وأنت إذا تأمّلت حال الناظر في النحو وجدته لا يخلو أن يكون أحد اثنين لا ثالث لهما: إما أن يكون صاحب نحلة ومذهب أو لا يكون"[2] وقد رأى "جورج مونان **G.MOUNIN** " بأن قضايا اللغة قد كانت ملابسة لقضايا المعتقد في كلّ الحضارات التي عرفت بكتاب سماوي"[3]. ونرى في هذا الصدد أن انبناء النظر النحوي عند"سيبويه" لا يخرج في إطاره العام عن الأساس العقدي الذي ميّزه. إن النظر في اللغة بصفة عامة، ومنه النظر النحوي يستند إلى أصل العقيدة ونظرا للعلاقة الوثقى بينهما كما قال " ابن جني" :"فأمّا تجوّزهم في تسميتهم الاعتقادات

- والآراء قولا فلأن الاعتقاد يخفى فلا يعرف إلاّ بالقول أو بما يقوم مقام القول من شاهد الحال فلما كانت لا تظهر إلاّ بالقول سميت قولا؛ إذا كانت سببا له وكان القول دليلا عليها."[4] إن المسألة يتجاذبها اعتباران اثنان أحدها –كما قال "عبد السلام المسدي"– لساني صرف والآخر مذهبي عقائدي، فأما الاعتبار المذهبي فهو الذي اتسم بالتقديرات النسبية فكان يمثّل المنحى الذاتي في تحليل الظاهرة اللغوية وتفسير نواميسها المحرّكة. ولما كان مقترنا بالبعد الديني فإنه تنزّل حضاريا في منـــزلة البناء العلوي المسيطر على عامة التفكير اللغوي حتى إنه يكاد ينفرد ظاهريا بحق الاحتكام وأمر التقييم"[5].
- يلاحظ القارئ لكتاب "سيبويه" استعماله لعدد معتبر من المصطلحات التي ميّزت خطابه من ذلك: الباب، المثال، مجاري الكلام، المبني، والمبني عليه، الاستقامة، الحسن، القبيح، الكلام المستحسن، الاستحسان، الأصل، الفرع، الابتداء، الإحالة، الكذب، الكلام المستغني، الذي يحسن السكوت عليه، الإجراء على الموضع، علم المخاطب، الإضمار، الإظهار، الخفّة، الثقل، الاتساع في الكلام، الإيجاز والاختصار، المحدّث والمحدّث عنه، المحدّث به، الحديث، حال الحديث، الوضع، الاستعمال، الحدّ، الاعتماد، علم العربية. تستند هذه المصطلحات اللغوية إلى مرجعيات فكرية ميّزت خطاب "سيبويه" ولذلك فإنّها تحتاج إلى

نوع من القراءة تخرجها من مستوى الموجود بالقوة إلى الفعل، إلى قراءة تسبر أغوار هذه المصطلحات في سياقاتها النصية، وتنفذ إلى أسسها المعرفية الداخلية التي تؤطّرها وتحدّد مفاهيمها العلمية. ونرى أن علم العربية مفهوم أساسي جامع عند"سيبويه" تأتلف حوله وتنتظم عناصر المنظومة اللغوية العربية بما هي تصوّر منظم عن اللغة نحوها وصرفها تؤثر في طريقة رؤية أهلها للعالم وفي كيفية تقطيعهم وتفصيلهم له، وبالتالي في طريقة تفكيرهم[6].

فهذه المصطلحات وغيرها في الكتاب نشأت وترعرعت في بيئة معرفية محدّدة لها خصوصياتها الروحية واللغوية وهي من أهم المسائل التي عادة ما تستعصي على الباحث في إدراكها وفهمها؛ لأنها تحتاج أساسا إلى تمكّن لغوي وحدّة ذهن وقوّة خاطر وقدرة على التصوّر. "وليس يخفى أن أكثر مزالق القوم ومهاويهم كانت من جانب فهمهم للغة وتصوّرهم لها. ولهذا عقد "ابن جني" (ت 392هـ) بابا في الخصائص سمّاه:"باب فيما يؤمنه علم العربية من الاعتقادات الدينية" وجعل منه أشرف أبواب كتابه، كما رأى أن الانتفاع به ليس إلى غاية ولا وراءه من نهاية، وذلك أن أكثر من ضل من أهل الشريعة عن القصد فيها وحاد عن الطريقة المثلى إنما استهواه واستخفّ حلمه ضعفه في هذه اللغة العربية الكريمة الشريفة ..."[7]

-يلاحظ القارئ لكتاب "سيبويه": **قدرته على الوصف** الدقيق للمسائل وعرضها والتمثيل لها بحسب ما تقتضيه اللغة العلمية المتخصصة من دقة وموضوعية فكل دال يعبّر عن مدلوله دون ترادف أو تكرار أو مجاز وقد

تجلّى ذلك في أكثر من موضع من مواضع الكتاب وأبرز دليل على ذلك حديثه صارم الدقة عن مخارج الحروف وصفاتها في باب الإدغام[8]

-تصوّره لظواهر التخاطب ووسائله مما نعده في صلب تحليل الخطاب ولسانيات النص.

يمكن أن نبحث عن هذه الظواهر من خلال تصوّر "سيبويه" للجملة على الرغم من أن هذه التسمية لم ترد في الكتاب، وكذلك عبارة "جملة مفيدة" لا أثر لها في الكتاب وبعد "سيبويه" إلاّ عند المبرد (ت 285هـ) في كتابه" المقتضب"، فقد رجّح الأستاذ "عبد الرحمن الحاج صالح" أن شيخه "المازني" قد استعملها هو أيضا، وقد يكون "الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة" تلميذ "سيبويه" وأستاذ "المازني" هو الذي استعمل عبارة: "جملة مفيدة" لأنه أول من استعمل كلمة "فائدة" بمعنى العلم المستفاد من الكلام[9] وهي تعني حصول الفائدة بما يضمن التفاهم المتبادل بين المتخاطبين.

وإذا كان "سيبويه" لم يستعمل عبارة "جملة مفيدة" فإنه قد استعمل مكانها لفظة "كلام" كوحدة إعلامية تبليغية بين متكلّم ومخاطب؛ فالكلام المستغنى عنه السكوت هو الذي يحقق الفائدة وبه يحصل المعنى.

وقد ميّز العلماء العرب القدامى بين المعنى والفائدة فقالوا: لا بد لكل كلام من معنى يدل عليه ولكنه وإن كان ينبغي أن يفيد في الأصل فقد يكون غير مفيد؛ أي غير حامل لفائدة/ الخبر يجهله السامع، وذلك مثل:"النار محرقة... " مثال مشهور في النحو العربي، فإن قيل هذا لمن اختبر خاصية النار المحرقة، فإن هذا الكلام، وإن كان ذا معنى فإنه لا يأتي بشيء جديد

بالنسبة للمخاطب، ولهذا أهمية عظيمة جدا، لأنه الأساس الذي بنيت عليه نظرية الإفادة الحديثة[10] **théorie de l'information**" نفهم من هذا أن الإفادة تعني إفادة المخاطب بالأخبار والمعلومات الجديدة عليه؛ أي بما يجهله.

وإذا كان "سيبويه" قد ألحّ على هذه الوظيفة؛ فقد التبس الأمر على الذين جاؤوا بعده فخلطوا بين الوظيفة الإعلامية والدلالة على المعنى[11].

إذا الجملة المفيدة –عند سيبويه– تعني الكلام المستغني الذي يحسن السكوت عليه؛ فهو يشكّل وحدة خطابية تؤدي وظيفة التبليغ وبها تتم إفادة المخاطب، "فالكلام المستغني أو الجملة المفيدة، هو أقلّ مثل ما يكون عليه الخطاب، إذ لم يحصل فيه حذف"[12]وهي نظرة للغة من جانبها الإعلامي الوظيفي، تتمثّل في الإخبار والمخاطبة؛ أي التبليغ المتبادل للأغراض بين المتخاطبين، بل إن "سيبويه" عندما تحدّث عن الحذف ربطه بعلم المخاطب، وجعل –بذلك– المتكلّم يستند إلى بديهة المخاطب في فهم المحذوف وبالتالي تحصل الإفادة من الكلام.

يقول:" ومما يقوي ترك هذا لعلم المخاطب قوله عزّ وجلّ:
﴿ والحَافِظين فُروجَهُم والحَافِظاتِ والذّاَكِرينَ اللهَ كَثيراً والذّاَكِراَتِ ﴾[13] فلم يعمل الآخر فيما عمل فيه الأول استغناء عنه[14].

ويوضّح "سيبويه" العوامل التي أدت الناطقين بالعربية إلى اتباع الحذف، وهي طلب الخفّة على اللسان واتساع الكلام والاختصار، رابطا كلّ ذلك بعلم المخاطب ومتحدثا عن الحذف بجميع أنواعه، مثل حذف الاسم سواء أكان مضافا أم مضافا إليه وحذف المبتدأ والخبر، والصفة

والموصوف، وحذف الفعل سواء أكان للإغراء أم للتحذير أم للتعجب مراعيا –في ذلك– التخفيف على اللسان ووجود القرينة التي نجدها في علم المخاطب، فالخفّة على اللسان تساعد على التبليغ بسهولة ويسر، وعلم المخاطب بهذه الخصائص يسهل عليه فهم الكلام الموجّه من المتكلّم، ثم إنّه مرتبط بأحوال التخاطب مثل الإغراء والتحذير، والتعجب... وغيرها؛ أي إن الخطاب يحدث في مكان وزمان معيّنين كحدث إعلامي تبليغي بحسب ما تقتضيه أنشطة الحياة اليومية، وهذا يبيّن كما قال الدكتور "زكي نجيب محمود" الصلة الحميمة الوثيقة بين بحوث الباحثين وبين حياة الناس العملية، حتى في مثل هذا المجال اللغوي الذي يبدو لعين القارئ العربي اليوم وكأنه مبتور الصلة عن تلك الحياة، جريا منه على ما ألفه في عصره هذا من الشقة في كثير جدا من الحالات بين رجال اللغة من جهة، وضروب النشاط العملي من ناحية أخرى..."[15]، وبين أيضا بعد النظر التداولي الذي تميّز به "سيبويه" تماما كما نقرأه في الدراسات اللسانية والتداولية الحديثة.

يتأسس الخطاب عند "سيبويه" على عنصرين اثنين متلازمين هما: المسند والمسند إليه "وهما ما لا يغني واحد منهما عن الآخر ولا يجد المتكلّم منه بدا"[16]؛ لأن ذلك لا يحقق الفائدة من الكلام فلا يمكنه الخبر أو الكلام كخطاب هدفه التبليغ، إلاّ إذا تأسس ذلك على المبتدأ (المسند إليه) ولا تتحقق الفائدة إلاّ إذا وجد المبني عليه[17]، والمقصود بالمبني عليه هنا هو الخبر، و"سيبويه" لا يسميه كذلك دائما، بل هو عنده "المبني على المبتدأ"، أما كلمة " الخبر"، فقد يطلقها على هذا، وعلى الحال أيضا، بل على كل ما هو مفيد فيه

"علم المخاطب"[18] وهكذا فإن الخبر ينقسم إلى:

- خبر هو جزء من الجملة لا تتم الفائدة دونه على مستوى البنية.
- وخبر ليس بجزء من الجملة، ولكنه زيادة في خبر سابق له على مستوى الخطاب.

فالأول خبر المبتدأ مثل :زيد منطلق"، والفعل مثل :خرج زيد، وكل منهما جزء من الجملة، وهو الأصل في الفائدة، والثاني هو الحال مثل: جاءني زيد راكبا، وذلك لأن الحال خبر في الحقيقة من حيث إنّك تثبت هذا المعنى لذي الحال، كما تثبته بالخبر للمبتدأ وبالفعل للفاعل[19].

وهكذا فإن الخبر عند"سيبويه" يعني الإعلام الذي يحصله المخاطب من العلاقات الإسنادية بين (المسند (المحدّث به) والمسند إليه (المحدّث عنه) فلا تتحقق بالبناء وإنّما ترتبط بالإفادة. يقول الدكتور "عبد الرحمن الحاج صالح" في هذا الشأن :"إن النحو العربي قد أسس على الغرض الذي من أجله خلق اللسان، وهو الإفادة، فغرضه لغوي محض، إذ يجعل الاسم والفعل عمادين للحديث، وهو ما يجري بين المتكلّم والمخاطب، وهو شديد الاهتمام بهذين القطبين للكلام، فالاسم والفعل لا يطابقان الاسم والكلمة، بل قد يوافق هذان المفهومان المحدث عنه (المسند إليه) والمحدّث به (المسند) بشرط أن يعبّر فيهما التصديق والتكذيب؛ أي من حيث صحة الحكم وبطلانه، والواقع أن هذا الاعتبار منعدم عند "سيبويه" ووجوده عند من تلاه يدل على تأثرهم بالمنطق، ومن جراء ذلك كانت مادة الدراسة النحوية العربية هي الحديث (لا الحكم) من حيث هو تبادل لفظي دون فائدة **contenu communicatif**

بين قطبين –لافظ وسامع– وإن اشتبه الأمر على متأخري النحاة فليس إلاّ لأنهم تناسوا حقيقة البلاغ اللغوي[20].

وميزة أخرى تميّز بها "سيبويه" وهي أنه بنى تفسيره لكثير من الظواهر الخاصة بالتخاطب على المعرفة بقوانين خاصة بالخطاب استقاها من استقرائه الدائم واهتمامه المستمر بكلام العرب وذلك في قوله:" ...إذا قلت عبد الله منطلق تبتدئ بالأعرف ثم تذكر الخبر، وذلك قولك: كان زيد حليما، وكان حليما زيد، لا عليك أقدمت أم أخرت، إلاّ أنه على ما وصفت لك، في قولك: ضرب زيدا عبد الله، فإذا قلت كان زيد ابتدأت بما هو معروف عند مثله عندك، فإنّه ينتظر الخبر، فإذا قلت: كان حليما، فإنّما ينتظر أن تعرفه الصفة، فهو مبدوء به في الفعل وإن كان مؤخرا في اللفظ، فإن قلت: كان حليم أو رجل، فقد بدأت بنكرة، ولا يستقيم أن تخبر المخاطب عن المنكور، وليس هذا بالذي ينــزل به المخاطب منــزلتك في المعرفة".[21]

تبيّن لنا هذه اللطائف التي أوردها "سيبويه" معرفته العميقة بخصائص الكلام عند العرب في مختلف أحواله ومقاماته، فمن ذلك الابتداء بما هو معروف، وبناء عليه يأتي الخبر وإعلام المخاطب، مثل ما يعلم به المتكلّم وعدم استقامة إخبار المخاطب عن المنكور، لأن ذلك لا ينــزله منــزلة المتكلّم في المعرفة فلا تتمّ الفائدة ويستحيل التبليغ.

ولذلك تطرّق "سيبويه" إلى **جهات الكلام ووجوه الإخبار** في قوله:"هذا باب تخبر فيه عن النكرة بنكرة، وذلك قولك: ما كان أحد مثلك وليس خيرا

منك، وما كان أحد مجترئا عليك، وإنما حسن الإخبار ها هنا عن النكرة حيث أردت أن تنفي أن يكون في مثل حاله شيء أو فوقه لأن المخاطب قد يحتاج أن تعلمه مثل هذا، وإذا قلت: كان رجل ذاهبا، فليس في هذا ما تعلمه كان قد جهله.

ولو قلت: كان رجل من آل فلان فارسا، حسن؛ لأنه قد يحتاج إلى أن تعلمه لأن ذلك في آل فلان وقد جهله. ولو قلت: كان رجل في قوم فارسا لم يحسن؛ لأنه لا يستنكر أن يكون في الدنيا فارس وأن يكون في قوم. فعلى هذا النحو يحسن ويقبح، ولا يجوز في "أحد" أن تضعه موضع واجب. لو قلت: كان أحد من آل فلان لم يجز لأنه إنّما وقع في كلامهم نفيا عاما. يقول الرجل: أتاني رجل، يريد واحدا في العدد لا اثنين، تقول: ما أتاك رجل؛ أي أتاك أكثر من ذلك، ثم يقول: ما أتاني رجل ولا امرأة، فتقول: ما أتاك رجل؛ أي امرأة أتتك، ويقول: أتاني اليوم رجل؛ أي في قوته ونفاذه، فتقول: ما أتاك رجل؛ أي: أتاك الضعفاء، فإذا قال ما أتاك أحد صار نفيا عاما لهذا كلّه. فإنّما مجراه في الكلام هذا ولو قلت ما كان مثلك أحد، أو ما كان زيدا أحدا، كنت ناقصا لأنه قد علم أنه لا يكون زيد ولا مثله إلاّ من الناس[22].

والملاحظ أن سيبويه في هذا النص وفي غيره، لا ينظر إلى الأمثلة التوضيحية التي يقدمها منعزلة منفردة، وإنما يقدمها في سياقاتها أو إن شئت فقل: يفترض لها سياقاتها لتتضح أكثر فأكثر، فتوجد أمثلة استقاها من كلام العرب ومن الشعر ومن القرآن الكريم.. وتوجد أمثلة أخرى افترضها لأنه بصدد الشرح والتفسير وإفهام المخاطب وهي قضية على درجة كبيرة من الأهمية ولابد من الانتباه إليها.

لقد كان نظر سيبويه للغة نظرا عميقا شاملا في بعدها المعياري والاستعمالي من ذلك ما ورد في النص السابق:"...قول الرجل: أتاني رجل، يريد واحدا لا اثنين؛ فتقول ما أتاك رجل؛ أي أتاك أكثر من ذلك، ثم يقول: ما أتاني رجل ولا امرأة؛ فتقول ما أتاك رجل؛ أي امرأة أتتك؛ ويقول أتاني اليوم رجل؛ أي في قوته ونفاذه، فتقول: ما أتاك رجل؛ أي أتاك الضعفاء..." فلا تتضح معاني هذه الأمثلة إلا من خلال السياقات اللغوية التي توظف فيها والمقامات التخاطبية التي تحيط بها، ويعد هذا من صميم الدراسات التداولية في وقتنا؛ إذ يعد المقام **situation** أو حال الخطاب **situation de discours** والسياق اللغوي **contexte linguistique** والمتكلم والمخاطب عناصر أساسية في إحداث الخطابات وتلقيها وإنتاج النصوص وقراءتها وفهمها.

فالنص في الأمثلة السابقة مرتبط بمقاصد المتكلم وأحوال الخطاب ولذلك فهو يحسن في سياق ولا يحسن في آخر.

ثم يربط سيبويه كل ذلك بمستويات الكلام في قوله:" هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة، فمنه مستقيم حسن ومحال، مستقيم كذب ومستقيم قبيح وما هو محال كذب، فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس وسآتيك غدا، وأما المحال فتنقض أول كلامك بآخره، فتقول: أتيتك إذا وسآتيك أمس.

وأما المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل وشربت ماء البحر ونحوه، وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك: قد زيدا

رأيت، وكي زيدا يأتيك وأشباه ذلك.

وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس"[23].

نستشف من هذا النص جانبين اثنين:

أولهما: بنوي شكلي حسب ما تقتضه القاعدة النحوية وتقبله.

وثانيهما: خطابي إعلامي إخباري، وهو من الأمثلة المذكورة في النص من خلال السياقات اللغوية والمقامات التخاطبية التي ترد فيها، وهذه كما قلنا، ميزة أساسية في كتاب سيبويه فهو يميز بين الاستقامة التي أساسها اللفظ وبين الاستقامة التي أساسها المعنى، وكذلك بين ما يقتضيه القياس بالنظر إلى النظام العام الذي يميز لغة من لغة أخرى، وبين ما يقتضيه الاستعمال بحسب الأوضاع والمقاصد والأغراض التي يؤمها المتكلمون.

فالمستقيم الحسن هو السليم في القياس والاستعمال.

وأما المستقيم القبيح فهو السليم في القياس وغير السليم في الاستعمال.

وأما المستقيم المحال؛ فهو السليم في القياس والاستعمال، ولكنه غير سليم من حيث المعنى.[24]

وبهذا فإن سيبويه يتجاوز النظر إلى الإعراب بالمعنى الشائع في كتبنا المدرسية ومؤسساتنا التعليمية؛ المدرسة والجامعة، ويتجاوز أيضا الفهم البسيط للإعراب والنحو الذي رسّخه الكثير من الذين لم يتجاوزوا قضايا الرفع والنصب والجر، وقل كذا ولا تقل كذا..وكأن العربية تكمن في هذه القضايا البسيطة حكرا على مثل هؤلاء.

وإنما نظر سيبويه إلى اللغة عميق جدا، فقد عرف أن العربية لغة مبينة؛ أي معربة، وأرادها أن تكون كذلك، وأدرك أن ذلك يكون من خلال

التفاعل بين مستوى البنية وما يقتضيه من قوانين وقواعد، وبين مستوى الخطاب وما يقتضيه من استعمال داخل الحياة الاجتماعية، وقد شكل ذلك عند سيبويه وأستاذه الخليل بن أحمد وشيوخه الآخرين نظرية لسانية تميز –من حيث التحليل والتفسير– بين ميدانين لغويين هما:
اللفظ الدال ومدلولاته، وبين الخطاب الذي هو كيفية استعمال هذا اللفظ وبين مدلولاته في الإفادة.[25]

إن أهم ما يميز خطاب سيبويه في الكتاب هو انطلاقه من الأمثلة المختلفة في المسائل الكثيرة التي عرضها، الأمر الذي يظهر معرفته الواسعة بظواهر الاستعمال اللغوي في المجتمع العربي آنذاك؛ فهو يقدم الأمثلة ثم يروح يعرضها ويوضحها، فيقدم أمثلة تزيدها وضوحا، الأمر الذي يظهر عمق درايته بظواهر التخاطب والمشافهة وما تقتضيه من استعمالات لغوية، مما يمكن أن ندرسه في إطار اللسانيات الاجتماعية والتداولية. من ذلك حديثه عن تقديم المفعول عن الفاعل فقال:" .. فإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول، وذلك قولك: ضرب زيدًا عبدُ الله؛ لأنك إنما أردت به مؤخَّرا ما أردتَ به مقدَّما، ولم ترد أن تشغل الفاعل بأول منه وإن كان مؤخرا في اللفظ. فمن ثم كان حد اللفظ أن يكون مقدما، وهو عربي جيد كثير ، كأنهم (إنما) يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم"[26].

يلاحظ المتأمل في هذا القول لسيبويه حديثه عن تقديم المفعول به عن الفاعل؛ لأن ذلك يرتبط بأغراض يؤمها المتحدث، فما يريده المتحدث هنا هو

المؤخَّر في الرتبة؛ أي المفعول فقدمه عن الفاعل؛ لأنه يريد في حديثه التركيز عليه، ولذلك شُغل الفعل "ضرب" –بزيد– لا –بعبد الله– لأن الضرب هنا وقع على –زيد– وهذا هو العنصر الذي يريد المتكلم الحديث عنه. ثم يقرر سيبويه حكما وهو قوله: " وهو عربي جيد كثير...".

يدل هذا على أن سيبويه له نظرة استقرائية عميقة لظواهر التخاطب والمشافهة –كما قلنا سابقا– الجارية بين الناس والتي تبرز في استعمالاتهم المختلفة للغة حسب ما تقتضيه الأحوال.

وكما بيّن سيبويه العربي الجيد المستعمل بكثرة بيّن الشاذ من ذلك قوله:" و(قد) قال بعضهم ذهبتُ الشام، يشبّهه بالمبهم، إذ كان مكانا يقع عليه المكان والمذهب. وهذا شاذ؛ لأنه ليس في ذهب دليلا على الشام"[27].

وهذا أيضا يؤكد النظر الاستقرائي عند سيبويه وقدرته على ذلك وبراعته فيه يظهر ذلك في حديثه في باب الفاعل عن الفعل الذي يتعدى إلى مفعولين اثنين.

فأحيانا يستطيع المتحدث أن يقتصر على المفعول الأول وأحيانا أخرى لا تكون له هذه الحرية وليس له أن يقتصر على أحد المفعولين دون الآخر من ذلك مثلا:" حَسِبَ عبدُ الله زيدا بكرا. وظن عمرُو خالداً أباك، وخال عبدُ الله زيدا أخاك، ورأى عبدُ الله زيداً صاحبنا...."[28].

فلا يمكن للمتحدث هنا إلا أن يكمل حديثه ولا يمكنه أن يقول:" حسبَ عبدُ الله زيدا..." فلابد من تمام الفائدة التي لا تكون بالاقتصار على أحد المفعولين.

يقول سيبويه في هذا الشأن:

" وإنما منعك أن تقتصر على أحد المفعولين هاهنا أنك إنما أردت أن تبين ما استقر عندك من حال المفعول الأول يقينا كان أو شكا. وذكرت الأول الذي تضيف إليه ما استقر عندك... فإنما ذكرتَ ..؟ ونحوه لتجعل خبر المفعول الأول يقينا أو شكا، ولم ترد أن تجعل الأول فيه الشك أو تقيم عليه في اليقين."[29] .

وحتى لا يقع اللبس في –رأى– و –وجد– يوضح سيبويه المسألة بقوله: " وإن قلتَ رأيتُ فأردتَ رؤية العين، أو وجدتُ فأردتَ وجدان الضالة، فهو بمنزلة ضربتُ، ولكنك إنما تريد بـــ –وجدتُ–، –علمتُ–، وبرأيتُ ذلك أيضا..."[30].

فالتعدية هنا تتم إذا كان المتكلم يقصد ما هو ذهني مجرد لا ما هو موجود حسي.

والأمر نفسه بالنسبة للفاعل الذي يتعداه فعله إلى ثلاثة مفاعيل، ولا يجوز أن يقتصر على واحد دون الثلاثة[31].

فإن المسألة مرتبطة تماما بما يقصده المتكلم.

إن من يقرأ كتاب سيبويه يجد الرجل كأنه يحدث شخصا أمامه يراه. وهذا يعني أيضا معرفته بالبيئة اللغوية العربية وتنوعاتها المختلفة ومستويات خطاباتها، من ذلك حديثه عن:" باب ما أجري مجرى ليس في بعض المواضع بلغة أهل الحجاز ثم يصير إلى أصله."[32].

وتحدث سيبويه عن مسألة أخرى مهمة وهي المتعلقة بالفعل والاسم وكيف يبنى أحدهما على الآخر، في قوله:

"فإذا بينتَ الاسم عليه (يقصد الفعل) قلتَ: ضربتُ زيداً، وهو الحدُّ؛ لأنك تريد أن تُعمله وتحمل عليه الاسم، كما كان الحد ضربَ زيدٌ عمراً، حيث كان زيد أول ما تشغل به الفعل، وكذلك هذا إذا كان يعمل فيه. وإن قدمتَ الاسم فهو عربي جيد كما كان ذلك عربيا جيدا. وذلك قولك زيداً ضربتُ والاهتمام والعناية هنا في التقديم والتأخير سواء مثله في ضرب َزيدٌ عمراً، وضرب عمراً زيدٌ."[33].

إن المسألة هنا تتجاوز المبتدأ والخبر والفعل والفاعل، أو الجملة الفعلية والاسمية إلى ما يقصده المتكلم من كلام؛ فيقتضي ذلك أن يبنى الاسم على الفعل، ثم إن ذلك يتعلق بالاهتمام والعناية في التقديم والتأخير تبعا للغرض البلاغي الذي يؤمه المتكلم، ولذلك يبنى خطابه بما يناسب المقام أو حال الحديث. وليس ما حاول ترسيخه بعض الدارسين من أن العربية تبدأ بالفعل لا بالاسم، وإنما إذا بدأنا الجملة باسم، فإن ذلك جيد، أو كما قال سيبويه:" وإن قدمت الاسم فهو عربي جيد."[34].

تبدي القراءة المتأنية للكتاب فيما يتعلق بظواهر التبليغ والمشافهة أرضية خصبة لنظرية قائمة بذاتها في التخاطب **communication** عند سيبويه؛ فقد أعطى أهمية لكل العناصر المكونة لدورة التخاطب ومنها: المتكلم والمخاطب وحال الخطاب ومقام التخاطب ومحيطه الاجتماعي وما يقتضيه من استعمالات لغوية متنوعة تبعا لمقاصد المتكلمين وأغراضهم المختلفة، وتجلى ذلك على مستوى النظام اللغوي وبنياته الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، وعلى مستوى الخطاب وما يقتضيه من تنوعات في الاستعمال.

ولذلك ربط سيبويه بين المقال والمقام أو ما يمكن أن يطلق عليه الآن بعض الدارسين في اللسانيات النصية بالإحالة النصية والإحالة المقامية، وبناء على هذا يمكن الوصول إلى تحديد أنماط خطابية متعددة ثاوية مختفية خلف النداء والاستفهام والتعجب والإغراء والمدح والذم والأمر والنهي والخبر والحال...، وكل ذلك تبديه التراكيب اللغوية المتنوعة كما يمكن استشفاف كثير من الوظائف اللغوية منها مثلا: الوظيفة الإخبارية، والانفعالية، ووظيفة اللغة الواصفة، والانتباهية والطلبية والمرجعية...

وبهذا فإن كتاب سيبويه ليس كتابا في الإعراب بالمعنى التقليدي؛ وإنما هو كتاب في تحليل الخطاب ولسانيات النص درس فيه اللغة كوضع أو نظام بنوي ودرس فيه ظواهر الاستعمال مما تؤكده الدراسات اللسانية المعاصرة في إطار الطابع التداولي العملي.

الهوامش والمراجع

1. انظر مفاهيم التعليمية بين التراث والدراسات اللسانية الحديثة، بشير إبرير وآخرون، مخبر اللسانيات واللغة العربية، دار المعارف، عنابة، 2009.
2. انظر إدريس مقبول، الأسس الابستيمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، جدار الكتاب العالمي، عمان، الأردن، 2007، ص، 2.
3. السابق، ص2، هامش2.
4. ابن جني، الخصائص، 19/1، وإدريس مقبول، السابق، ص2.
5. عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، 1981،ص،100.
6. إدريس مقبول، السابق، ص،3.
7. إدريس مقبول، السابق، ص3، وابن جني، السابق، 245/3، 246.
8. سيبويه، الكتاب، تح، عبد السلام هارون، عالم الكتب، ط3، 1983، ص431/4، إلى ص 434.
9. انظر، عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيبويه، مجلة المبرز، المدرسة العليا للأدب والعلوم الإنسانية، ع2، جويلية- ديسمبر، ص8.
10.

10- انظر، عبد الرحمن الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث، مجلة اللسانيات، المجلد1، ع2/ 1971، ص، 65، هامش، 87.

11. انظر، عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيبويه، ص، 9.

12. المرجع نفسه، ص10.

13. سورة الأحزاب، الآية 35

14. الكتاب، ص74/1.

15. زكي نجيب محمود، المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، ص،84.

16. الكتاب، ص، 23/1.

17. نفسه، ص، 23/1.

18. انظر، عبد الرحمن الحاج صالح، اللغة العربية ومشاكل علاج العربية بالحاسوب، بحث مخطوط.

19. انظر، عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، سلسلة الأنيس، موفم للنشر، الجزائر، 1991، ص، 206، وما بعدها.

20. انظر، عبد الرحمن الحاج صالح، النحو العربي ومنطق أرسطو، مجلة كلية الآداب، جامعة الجزائر، ع1، 1964، ص،79.

21. الكتاب، ص، 47/1، 48.

22. نفسه، المطبعة الأميرية، 1316هـ، ص،18/1.

23. نفسه، تح، عبد السلام هارون، ص،25/1.

24. انظر، عبد الرحمن الحاج صالح، المدرسة الخليلية الحديثة

والدراسات اللسانية في العالم العربي، ص، 379.

25. انظر، عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيبويه، ص، 19.
26. الكتاب، ص، 34/1.
27. نفسه، ص، 34/1.
28. نفسه، ص، 39/1.
29. نفسه، ص، 40/1.
30. نفسه، ص، 40/1.
31. نفسه، ص، 40/1.
32. نفسه، ص، 57/1.
33. نفسه، ص، 80/1، 81.
34. نفسه، ص، 80/1.